نجيب نصار :
الصحفي المقاتل الذي انتظر هزيمته

فيصل دراج

إلى طفل فلسطيني لا يحتاج إلى تصفيق أحد . .
إلى محمد جمال الدرّة

وقد ترجم الكلمات أمير الكلام إن تداعت القواميس، يُقال . « وقد توفّي في حيفا في مطلع سنة ١٩٤٨ (؟) إبّان الإضطرابات، ولم تتح الظروف له آنذاك الإحتفال بوفاتِه كما يليق به وبجهوده »[١] ، هذا ما كتبه قلمُ نجيب عن نجيب نصّار، « شيخ الصحافة الفلسطينيّة »، كما يقول كثيرون . في إشارة الإستفهام، التي تجعل يوم موتِه منسيّاً ، ما يجعل من ذاكرة الأحزان المتجدّدة ذاكرة وحيدة، كما لو كان الحزن المتوارث بديلاً عن ذاكرةٍ تحسن المحاكمة . والحزن ماءٌ غريب، لا يغسل ما يجب غسله إلاّ في لحظات هاربة .

كان موت « أبو فلسطين » في ذلك اليوم المطير، ربما، رمزياً قبل أن يكون جسدياً . فالشيخ الذي تداعى، وقد جاوز الثمانين، كان قد آثر العزلة في بيتِه في بلدِ الشيخ، ضاحية حيفا . فإن حاصره الشجن، حملته خطاه المتثاقلة إلى بيّارة موز في بيسان، محاوراً أطيافاً تقاسمه لوعة قديمة . كان الجسد قد استسلم للتّداعي، بعد رحلة مجيدة، والقرى الفلسطينيّة تتساقط، والأمطار تنسجُ مشهداً جنائزياً ، وصوت مختنق لزمن يسقط في الأفول . كانت فلسطين تسقط من يدٍ إلى أخرى، واسمها المألوف تطارده أسماء معادية . ونصّار، الذي احتجب وراء الأشجار وثقل السنين، يرى إلى وطن

يغيب، مؤثراً أن يغيب مع الوطن الذي يغيب، بعد أن نذر عمرَه للوطن، الذي قاسمه التّداعي والغياب. رحل إلى قبرِه مخذولاً في وداعٍ أخير نفره قليل. لأنّ «الآخرين» حملوا خذلانهم ورحلوا.

١- سيرة نصّار في ملامح ناقصة :

كان نصّار، في ذلك اليوم الجنائزي، يصافح موتَه الثالث. فقد لقي الثاني وهو يغلق «كرمله» في مطلع الحرب العالمية الثانية، بعد صدور قارب ربع قرن من الزمن. وربما كان، وهو يُصمت صوته، يشعر بعبء العمر، مدركاً، وهو العقل اليقظ، أنّ انفتاح الثورة الفلسطينية الكبرى – ١٩٣٦ – ١٩٣٩ – على الفراغ، فتح باب الهاوية أمام فلسطين. مع ذلك، فإنّ نصّار، الذي كان يضع طربوشه مائلاً على طريقة تجّار بيروت، كان قد تعرّف على موتِه الأوّل، وهو يرى إلى أرواح ميّتة وعقولٍ صدئة وغثاثة سياسيّة، أخرجت محمد عزّة دروزة عن طورِه أكثر من مرّة، وأتلفت أعصاب خليل السكاكيني مرّات عديدة. كان قوله المنظّم المستنير يتهمّش، وفي أوقات كثيرة، أمام رطانة الأعيان المعلبة. ولأنّ الخطابة تهزم العقل النثري، كان على صاحب جريدة الكرمل، وبعد كفاح نموذجي ضد الصهيونية، أن يمشي في شوارع حيفا وحيداً، لا يلتفت إليه أحد : «ففي سنة ١٩٣٣ سافرتُ إلى حيفا للقاء نجيب نصّار، ...، وقد فتح أمامي قلبَه، وأخبرني بما يلاقيه من أبناء شعبِه الذي لا يقدّر ما كان يفعله من أجل الشعب الفلسطيني، ومحاربته للإستيطان اليهودي لسنين طويلة»[٢]. وهذا الذي لم يكن يلتفت إليه أحد، بعد حوالي عشرين عاماً من ظهور الكرمل، كانت الحركة الصهيونية قد شكته، ومنذ زمن، إلى المراجع العثمانية العليا، بعد أن رأت فيه عزماً فرديّاً فريداً يقترب من الظاهرة. فما أن مرّت فترة وجيزة على ظهور الكرمل حتى نشرت صحيفة هاعولام، الناطقة بلسان الحركة الصهيونية المركزية. تقريراً لمراسلها في فلسطين جاء فيه : «إنّ القوّة الأكبر في فلسطين هي قوّة العرب.. ونحن ننسى كلياً أنّ هنالك عرباً في فلسطين، ولم نكتشف هذه الحقيقة إلاّ في السنوات الأخيرة فقط... إنّنا لم نأبه لهم ولم نحاول قط أن نقيم صداقات لنا في صفوفِهم. ويعتبر المثقفون المسيحيّون أكبر أعداء اليهودية في صفوف العرب»[٣]. يحيل تعبير «المثقفون المسيحيّون» إلى مثقفين غير نجيب نصّار، لكنّه يحيل عليه أوّلاً.

كتبت فرنسيس نيوتن : «وكنت قبل تلك الحرب قد بدأت أفتح عيني على الصهيونيّة في مقالات ترد في جريدة الكرمل، عن إقبال اليهود على الأراضي يشترونها وينشئون المستعمرات، فتتعرّض مرافق العرب الزراعيّة والإقتصادية للبوار والدّمار»، ويكتب الكس كرمل : «وكان تأثير «الكرمل» كبيراً، وخصوصاً بين أبناء الطائفة المسيحيّة والتجّار منهم خاصة»[٤]. ويبدو أن نصّار، الذي ازدرى معروف الرصافي وهو يمدح المندوب السّامي في فلسطين، كان محمولاً، حين أسّس جريدته، على لهب داخلي وإحترام إجتماعي كبير. يكتب الدّكتور عبد الوهاب الكيالي : «في السابع من شهر حزيران ١٩١١ نشر نجيب نصّار في صحيفة الكرمل رسالة مفتوحة موجّهة إلى جميع رؤساء تحرير جميع الصحف العربية، الذين يشاركونه رأيه ومشاعره، مقترحاً فيها توحيد جهودهم في جبهة واحدة ضد الصهيونيين.. وهكذا نجد عند مراجعة الصّحف العربية الصادرة في النصف

الثاني من عام ١٩١١ مقالات كثيرة ضد الصهيونيّة».[٥]

لم يكتف نصّار، الذي كان يدعو إلى غرس الأشجار ويستخف به «تجّار الوطنية»، بتحويل الكرمل إلى الصحيفة الأعلى صوتاً في الدفاع عن فلسطين، بل ترجم أيضاً (في عام ١٩١١) كتاباً دعاه: «الصهيونيّة: تاريخها، غرضها، أهميّتها». كشف في الكتاب عن إيديولوجيا الصهيونيّة وأهدافها، وأشار إلى بنيتِها شبه العسكريّة وطريقة عملِها في فلسطين. جاء في الكتاب أنّ الصهيونيّة تسعى إلى «السيطرة على بلادنا ومصادرِ حياتِنا»، وطالب بـ«قيادة صلبة ومخطّطات جريئة، فنحن العرب بحاجة إلى الإعتماد على النّفس والكفّ عن إنتظار كلّ شيء من الحكومة». والقيادة الصلبة، والتي حلم بها نصّار، هي التي ترى في التعامل مع الصهيونيّة خيانة، كما قال، وتعمل على إنقاذ الشّعب والحفاظ عليه من «خلال العمل الواعي المنظّم». ولهذا قادت الكرمل حملةً تدعو إلى إيقاظ الوعي وتنظيم العملِ، أفضت إلى ظهور «جمعية مكافحة الصهيونيّة»، التي اتّخذت من نابلس مقرّاً لها، وأقامت لها فروعاً في مناطق أخرى. وبما أنّ الكرمل رأت في «تحسين حالة الفلاّح وتعزيز كرامتِه ما من شأنه أن يعزّز إحساسه بالواجب نحو أمّته»، أصبحت قضيّة الأرض والفلاّح ركناً أساسياً من أركان جمعية مكافحة الصهيونيّة، فاحتجّت على بيعِ الحكومة للأراضي بالمزاد العلني، وطالبت بالحفاظ على حقوق الفلاّحين في أراضيهم، التي اغتصبتها الحكومة، و«ذلك بأن يدفع الفلاّح الديون المترتّبة عليه بأقساطٍ سنويّة».

ومع أنّ نجيب نصّار، كما الكرمل، غدا ذائع الصّيت قبيل الحرب العالمية الأولى، فإنّ أثره، تحديداً، توجّه إلى النّخبة الإجتماعية المتعلّمة. خاصة أنّه لم يكن يحسن اللغة المزخرفة الفارغة، التي تبهر البسطاء، بل كان مشغولاً بلغةٍ أخرى، مفرداتها الوعي والإرادة والتنظيم والإرتقاء بالكفاءة والمسؤولية الوطنية و«العلوم التطبيقيّة». وهذا التوجّه إلى النخبة بلغة بسيطة، تقترب من الركاكة أحياناً، وبصوت وطني واضح لا مساومة فيه، أمدّه بجملة من العلاقات الإجتماعية أضاء بعض جوانبِها في «روايته»: «مفلح الغساني». وإذا كانت الفاعليّة النخبويّة جعلت إسمه متداوَلاً لدى الإدارة العثمانيّة الحاكمة، فإنّ الفاعليّة ذاتها حرّضت الإدارة على مراقبتِه والتوجّس منه، بسبب تواطؤ مضمر، أو سافر، بين الحركة الصهيونيّة والحكومة العثمانية. وبقدر ما كان عادياً أن يشكو حاييم ناحوم، كبير الحاخاميّين في الحكومة العثمانيّة، نجيب نصّار إلى وزير الداخليّة في القسطنطينيّة. كان عادياً، بدوره، أن تلاحق تلك الحكومة نصّار القومي العربي، وإنْ كان قد نجا برأسِه مرّتين متتاليتين.

على نقيض وعي غائم، لا يزال يتناتج حتى اليوم، يختزل الصهيونيّة إلى اليهودية، اشتقّ نجيب نصّار موقفَه العقلاني من معنى الوطن. وما كان موقف هذا المثقّف، الذي يميل إلى القِصَر والبدانة. منعزلاً عن مواقفٍ أخرى، تترجم سيرة المثقّف الحديث في مجتمع بلا حداثة. فإضافة إلى تصوّر «علموي» للعالم، استقدم نصّار «الغساسنة» إلى الزمن الحديث، كي يوطِّد عروبتَه، ويؤكد الوعي القومي قوّاماً على الوعي الديني. كما لو كان إنتسابه المسيحي، وقد أخذ جذوراً عربية، تعبيراً عن حسّ عروبي راسخ. لم يرحِّب به العثمانيّون أبداً. وتعيَّن وعيه الحديث بالمهن التي اختارها، فهو المحامي والمعلّم والصحفي والمترجم، والحالم بزراعة تعتمد على «العلوم التطبيقيّة». بل أنّ هذا الوعي

كان مشدوداً إلى «الدستور»، قبل أن يلتفت إلى الزراعة وقراءة شكسبير، لأنّ بلداً لا دستور فيه يتلف البشر والأشجار في آن. ويذكر نصّار في إحدى إفتتاحيّات الكرمل (عدد ٤٢٦، السنة الخامسة، ١٣ / ١ / ١٩١٣)، يأسه من النّظام التركي الذي ينكرُ الحريّة وقراره بالهجرة، وغبطته بإعلان الدستور – ١٩٠٨ –، وإنْ كان في ممارسات «الطورانيين» ما لا يبعث على الراحة. وكان احتفاؤه بالدستور، في مناخ طوراني يشير التوجّس، مرآة الوعي يؤمن بـ«قوّة الحريّة» إلى حدود الشطط، دون تدقيق كافٍ في ملامح الذين ينادون بها.

وضع نصّار، الذي كان يكتب جريدته ويخرج موادّها وينضّد حروفها ويوزع نسخها، كتباً مختلفة الإختصاص، وقد تعبّر الكتابات المتنوّعة عن معرفة واسعة، لكنّها تعبّر أولاً عن نزوع رومانسي، يرى تعدديّة الحريّة في التحرّر من جهل متعدّد. فإلى جانب كُتيّب عن الصهيونية (٦٤ صفحة)، ظهر في سنة ١٩١١، ملخصاً عن الأنسكولوبيديا اليهوديّة. يوجد كتاب «الزراعة الجافّة» وهو كتاب شبه مترجم، أملته دوافع وطنيّة لا تنقصها الرومانسيّة. وإلى جانب الكتابين الموزعين على السياسة والزراعة، هناك كتب أدبيّة – تربويّة مثل «شمم العرب» و«في ذمّة العرب» وسيرة ذاتية محددة الزمن عنوانها : «رواية مفلح الغساني». وبما أنّ على الكتب أن تضيع، ولو قُدّ صاحبها من حكمة، فإنّ كتب نصّار لا تتوفّر إلاّ صدفة، بفضل دارسين، لم يفقدوا الذّاكرة، مثل حنّا أبو حنّا ووليد خليف. حين يتعرّض أبو حنّا لكتب نصّار يكتب ما يلي :

«ونبحث عن هذه الكتب جميعها فلا نحظى بنسخة منها. أمّا المكتبة القوميّة في الجامعة العبريّة في القدس فوجدنا في بطاقاتها تحت إسم «نصّار، نجيب» ما يلي من مؤلّفاته..». وما يوجد في البطاقات لا يوجد على رفوف المكتبة، فإنْ حصل الأمر، جاءت نسخة وحيدة مجلّلة بالفناء والنسيان.

ويكتب خليف، الذي عني بجمع «رسائل صاحب الكرمل»، الكلمات التالية : «إنّ الأيّام والسنين تمرّ تباعاً والموثقات والحقائق التاريخيّة والوقائع الإحصائية، وتأرخة الأماكن والموجودات في طريقها إلى الإندثار».

ولأن الإندثار يتأبّط المنسي، يغدو البحث عن مسار نصّار شاقّاً، ويضع مؤرّخ تاريخ ميلاد الكرمل في عام ١٩٠٨، ويشاء آخر أن يضعه في عام لاحق.

وسواء وضع نجيب نصّار، كتباً للنسيان أم دفاتر للذّاكرة، فإنّ جريدة الكرمل تظل إنجازه الأكبر، بفضل ريادة مزدوجة : رائدة وهي تعلن ميلاد الصحافة الفلسطينية، ورائدة وهي ترى إلى المشروع الصهيوني دون غبشٍ كبير، بل أنّها رائدة وهي تذيع الحقائق عارية، بعيداً عن تشاطر «تجّار الوطنية»، الذين شطارتهم بذاءة. يكتب ماهر الشريف، وهو يبحث عن بدايات الهويّة الفلسطينيّة : «وقد تحدّد عام ١٩٠٨ كنقطة انطلاق بصورة إعتباطيّة إلى حد ما، وذلك باعتباره العام الذي ظهرت فيه أوّل صحيفة فلسطينيّة، وهي صحيفة «الكرمل»، عبّرت، بهذا الشكل أو ذاك، عن بروز تلك المظاهر لوعي «وطني» فلسطيني بدئي، أخذ يتبلور كتعبيرٍ عن إدراك مخاطر مشروع صهيوني صارت ملامحه وأهدافه أكثر وضوحاً»(٦).

ينقل حنّا أبو حنّا عن كتاب «تاريخ حيفا» لجميل البحري الصّادر سنة ١٩٢٢ ملامح نجيب نصّار

آنذاك : « الكرمل جريدة عربيّة تصدر مرّ تين في الأسبوع، واشتراكها في فلسطين ١٢٥ غرشاً مصرياً و١٥٠ في الخارج. أُ نشئت سنة ١٩٠٩، وتوقفت مدّ ة أربع سنوات الحرب الكبرى، وعادت إلى الصدور بعدها في بدء سنة ١٩٢٠، وهي اليوم في سنتِها التاسعة التي ابتدأت سنة ١٩٢٢. وقد بلغ مجموع أعدادها لهذا التاريخ ٨٣٠ عدداً. أمّا موادها فغزيرة ومباحثها تدور حول الوحدة العربية وكتاباتها بهذا الشأن شهيرة. وقد عالجت القضية الفلسطينية معالجة أكسبت صاحبها إسم أب فلسطين، خصوصاً وهو أوّل من لفت الأنظار إلى الصهيونيّة وأخطارها. وقد وضع لها كتاباً طبعه قبل الحرب ». ويكمل البحري صورة الكرمل فيقول : « أوّل مطبعة أتي بها إلى حيفا هي المطبعة الوطنيّة لباسيل الجدع سنة ١٩٠٨، ثم جاءت بعدها مطبعة جريدة الكرمل سنة ١٩٠٩ لنجيب نصّار ».

نصّ بت الكرمل، ولفترة من الزّ من، نصّار « أباً » لفلسطين، لشدّ ة تنديده بـ« سماسرة الأرض »، ولوضوح فكرِه في شرح غايات الصهيونيّ ة، غير أن صوت نصّ ار، ما لبث أن اتّسع وامتدّ في صحيفة المقتبس الدمشقيّة وصحف المفيد والحقيقة والرأي العام الصادرة في بيروت. فهذه الصحف جميعاً كانت تنقل صوت نصّ ار وتترجمه، مندّدة ببيع الأراضي العربيّ ة للمستوطنين اليهود، ومطالبة السلطة العثمانيّة أن تكون أكثر عدلاً. وإذا كان نصّار قد استنصر صحفاً عربية ونصرته، فإنّ صحيفة فلسطينيّة عنوانها : « النفير »، يحضر اسمها اليوم إذا حضر اسم نصّ ار لا أكثر، كرّست كلماتها للهجوم على الكرمل، كانت الصحيفة المذكورة تترجم تمويلها اليهودي – الألماني إلى كلمات عربيّة كاذبة.

تنقّل بين مهن عدّة وعاش حرّاً ، وتعاطى الزراعة وارتاح إليها، واختلط بالبدو وأبناء القرى وتعلّم عاداتهم، وقرأ شكسبير مرّ تين وكتب أكثر من حكاية، وأنشأ جريدةً تُعلِّ م مبادئ الوعي والوطنية، ودعا إلى تأسيس « جمعية النهضة الإقتصادية العربية »، بعد أن نادى قبل عقد من الزمن تقريباً بإنشاء « جمعية مكافحة الصهيونيّة ». وعمل محامياً وأنصف المظلومين، وشكى من تجاهل شعبِ ه له، ومات مخذولاً يوم فقدت فلسطين أهلها.. قدر غريب لرجل أحبّ الحياة والوطن والعدالة. وما خسرَ إلاّ ما أراد أن يخسر. شيء قريب من المثل القائل : ومداوي الأوجاع يموت في غرفتِه مريضاً.

٢- سيرة ذاتيّة مجزوءة :

« حوالي السّاعة التاسعة من مساء يومٍ في أوائل شباط سنة ١٩١٥، سمع حليم قرعاً خفيفاً على باب بيتِه على ظهرِ الكرمل، فهرع إلى الباب وهو يضرب أخماساً في أسداس ». هكذا يبدأ الفصل الأوّ ل من « رواية مفلح الغساني »، التي تسرد أقدار نجيب نصّ ار، ولمدّ ة ثلاث سنين تقريباً ، بعد أن أخذ عليه الإتحاديون الأتراك تمسّكه بعروبتِ ه، بلغة مستقيمة، أو عمله لصالح الإنكليز، بلغة كاذبة.

وقد تعامل الإتحاديون مع العرب، وكما تقول الرّ واية، بأدوات النفي والتغريب والحبس والتشهير والجلد والسوق إلى الديوان العرفي. وكان على « مفلح الغساني » أي نجيب نصّ ار، أنْ يختلف إلى أماكن مختلفة، تبدأ بحيفا وتنتهي بدمشق، كي يحرّر نفسَه من تهم ملفّقة. لكنّ ه، وهو ينتقل من مكانٍ إلى آخر، كان يسرد أنساقاً من الثقافة والعادات والحياة الإجتماعية، قبل أن يحكي عن أوجاع الطريد ومفاجآت المطاردة. وكان المطارَ د، رغم الشتات راضياً ، مؤمناً بقولٍ جميل : « إلق خبزك على

وجه الماء تجده بعد حين »، أو كن كما أرادتك الفضيلة أن تكون، فلا كلّ الأماكن ترحّب بالرذيلة. يقول « مفلح » : « لقد علمتُ أنّني أتيتُك لأتوارى لا خوفاً على حياتي، ولكن لأنّي أريد أن أعيش لأولادي ولوطني المهدّد بخطر الإستعمار الصهيوني. ص : ١٣٩ »[٧].

« مفلح الغساني »، التي نشرت تباعاً في جريدة الكرمل، نص طريف، يعطي ذاته صفة الرواية، في زمن لم تعرف فيه الرّواية العربية بعد إلاّ عمل محمد حسنين هيكل الشهير : « زينب ». وبما أنّ الإسم لا يخلق المُسمّى، يقدّم نصّار وثيقة إجتماعية – تاريخية هامّة، تحيل على أشياء كثيرة، دون أن تلتقي بعالم الرواية بالضرورة. ومن الطريف، وفي ذاك الزّمان، أن يحجب نصّار إسمه وراء اسم آخر ملتمساً، وعن طريق صيغة « الغائب »، قدراً من الحريّة في الكتابة، وكان بحاجة إلى هذه الحريّة، ربما، ليقدّم « عبرة » الدفاع عن الحق ومآله. ولعلّ خروجه من المطاردة سليماً، وضع على قلمه صفة متفائلة وأخرى لا ينقصها الفخار. فمتفائل هو حين اشتقّ إسمه من « الفلاح »، أي النجاح ولا يعوزه الفخر، وهو ينتسب إلى قبيلة عربيّة قديمة ومسيحيّة.

إتّكاء على تصور تربوي – تحريضي للكتابة، لا ينسى « فضائل العرب »، يؤكد نصّار، وهو يلتمس الأمان في أكثر من مكان. جملة فضائل إيجابيّة، منسوبة للعرب. ولهذا وضع « روايتين » إحداهما « في ذمّة العرب » أو « حرب ذي قار » والثانية « وفاء العرب »، ولن تكون الشخصيّات المتواترة، التي تتناوب على إحتضان المطارَد، إلاّ مرايا متجاورة لقيم ناصعة البياض، مثل التعاون والغيرة والوفاء والكرم والردّ على المعروف بالمعروفِ والحفاظ على الكبرياء. وبداهة، ورغم تصوّر رومانسي للقديم، فإنّ نصّار كان يرى إلى القيم الفاضلة وهو يرى إلى توظيفها في مشروعٍ وطنيٍ. وبهذا يصبح إصلاح الأخلاق مقدمة لإصلاح العمل السياسي. يتحدّث نصّار، وقد وجد ملاذاً أميناً، عن دورِه في محاربة بيوع الأراضي « إستعرض مفلح هذه الحوادث كلّها وقال في نفسِه لو أعطي إمتياز الغور للأصفر أو لو بيع في أوائل سنة ١٩١٤ من أين كنتُ أجد من يهتمّون بي ويعرضون بأنفسهم للخطر من أجل سلامتي ويقدّرون لي جهادي في سبيل إستبقاء الغور لهم. ص : ١٢٦ »، « إرتاح مفلح لذكريات جهاده في سبيل إنقاذ الجفالك وإلى ما كان يراه من وفاء قومه، فقال في نفسِه إنّ أمّة مثل هذه أخلاقها تسيج عليها وتحمي وطنها، ولكن الأخلاق تفسد اليوم. ص : ١٢٧ ». و« اليوم » الذي كانت تفسد فيه الأخلاق هو بداية العشرينات التي سبقها عقد من الزمن أكثر يقظة وتماسكاً، قبل أن يصل الإنتداب البريطاني متوّجاً بوعد بلفور.

يشتقّ نصّار الأخلاق، في « روايته »، من ضرورتين : ضرورة وطنيّة، فلا إمكانية للمبادئ الوطنيّة إلاّ لدى أرواح تحترم معنى المبادئ أوّلاً. ممّا يقيم عروة وثقى بين الوعي الوطني والوعي الأخلاقي، وضرورة قوميّة. إذْ العربي يكون كما يجب أن يكون، حين يحمل في ذاتِه الأخلاق التي انتسب إليها العرب، وبهذا المعنى، فإنّ التمجّد القومي يتهالك سريعاً، إنْ لم يتجسّد في جملة قيم عملية تدافع عن التاريخ العربي، وهي تدافع عن « الوطن العربي ». أو لنقل : إنّ ضعف « الأخلاق الوطنية »، بتعبير نصّار، كشف عن ضعف « الإنتماء القومي ». وما حاول نصّار أن يقوله ولم يقله هو مفهوم : المسؤولية، الذي إن احتضنته فرديّة متطورة ضروريّة له، ربط بين الأخلاق والوطن، وبين الوطن والذّاكرة الجمعيّة

التي تكوّنت فيه. يقول «مفلح»: «هذا الذي إنتقدته بشّدة يظهر مثل هذه المروءة والغيرة. أليس في مثل هذه الأعمال عبرة للعرب ليوسعوا صدورَهم ويتآخوا ويتعاونوا؟ ص: ١١٧». والحديث عن «عبرة» مرتجاة تعبيرٌ عن مسؤوليّة «مرتجاة» غائبة. وبسبب هذا، فإن نصّار يردّد شعار «الشهامة العربيّة العظيمة» إلى ما لا نهاية، رغبةً في نقل الشّهامة من أثير الشعار إلى أرض الواقع. وبالتأكيد، ودون إفراط في التنقيب، فإنّ معرفة نصّار بالتاريخ العربي محدودة، تشهد على ذلك المهن التي ارتاح إليها، وأسلوب كتابي فقير النضارة. و«الشهامة العظيمة»، في تحديد كهذا، إختراع تربوي أملته رغبة تنوس بين مجتمع متخيّل قديم ومجتمع متخيّل قادم. يمكن إدراج الإختراع، بداهة، في سياسة ثقافيّة، أخذ بها دروزة، وكان معجباً بنصّار، واقترب منها السكاكيني. فعلى الأحفاد أن يخترعوا أجدادهم العظام، وأن يقنعوا الأجداد بإختراع أحفاد عظام أيضاً. يفصح الإختراع عن أزمة مزدوجة: تتعيّن الأزمة الأولى بحاضرٍ يستنهض ماضياً ميسوراً، وتتحدّد الأزمة الثانية في فقر الوسيلة، فلا يستنجد بالأخلاق إلاّ من قارب تخوم الإفلاس. بمعنى آخر: إنّ تعظيم العنصر الأخلاقي، في فلسطين التي تقترب من الغرق، تعبيرٌ عن ضعف الحركة الشعبية وضآلة الوعي الاجتماعي وبؤس الأحزاب السياسيّة، التي هي «أحزاب وطنيّة بلا وطنيّة»، كما يقول نصّار، وهذا الواقع، ربّما، هو الذي جعل نصّار يأخذ بعنوان تراثي: «مفلح الغساني»، ويشير في نصّه إلى روايتين تراثيّتين، ويشير إلى «أشرف التقاليد العربيّة».

كتب نجيب نصّار سيرته الذاتية المجزوءة، وتغطي سنوات ثلاثاً، حين لاحقته الحكومة العثمانية كعروبي يميل إلى الإنجليز. وإذا كانت العناصر التي أنتجت دراما شخصيّة سياسيّة بطبيعتها، فإنّ المناخ التاريخي الذي تكوّنت فيه، وفضاءه الحرب العالميّة الأولى، يعطي السيرة أبعاداً جديدة، ويؤكّدها سيرة ووثيقة تاريخيّة في آن. تحيل عناصر السيرة – الوثيقة على العثمانيّين وحلفائهم الألمان، وعلى الإنجليز والصهاينة، وعلى شعب فلسطيني يحوق به خطر وشيك. أمّا العنصر العثماني فكان مسكوناً بالمفارقة، يقول بالدستور ويمارس سياسة عنصريّة، تضع الأتراك فوق العرب، وتفرض اللّغة التركيّة لغة للجميع. وتجلى الدستور، الذي ينقض ذاته، في «الديوان الحربي العرفي»، الذي جعل من أوامر جمال باشا السفاح قانوناً متعالياً، يدفع بمن يشاء إلى الموت. جاءت صفة السفاح من مشانق الشهداء، ومن مجتمع عربي مذعور تحوّلت فيه الوشاية إلى دين يومي «حتى أنّ الأخ كان يشي أحياناً بأخيه وكان المتزلّفون يتزاحمون على باب مقرّه ليتقرّبوا منه بالدسّ على بعضهم بعض. ص: ٩٩». وكان الكثيرون من العرب، وقد قوّضهم الخوف «يمجّدونه ويتهمون الشهداء بالخيانة، حتى قيل إنّه لمّا مرَّ بجنين ذهب أب أحد الشهداء إلى المحطّة للسلام عليه فاعتزّ الرجل بنفسه وتحقّق أنّ البلاد ليس فيها رجال أشدّاء يخشى بأسهم فلم يحترم أحداً.. واحتقر جمال طبعاً الأمّة التي تعبد زعماء يتظاهرون كذباً بالرضى عن تعليق أبنائهم على أعواد المشانق». وإضافة إلى الظّلم وصناعة الإذلال، لم يقف خلفاء السلطان عبد الحميد في وجه المشروع الصهيوني، ذلك أنّ «جمعية الإتحاد والترقّي»، وكما يذكر بروكلمان، تلقّت دعماً مالياً من الـ«دونمة»، وهم يهود سالونيك الداخلون في الإسلام، والذين كانوا يسيطرون على الحياة الإقتصادية في المدينة.

كان الأتراك يعلّقون مشانق العرب، يمنعون الأحزاب ويعطّلون الصحف ويشدّون الزّمن العربي إلى زمن ميّت نتن الرائحة. وكان الأوروبيّون مشغولين بتقسيم تركة «الرجل المريض»، فللقنصل الألماني حضوره في فلسطين، يناوئ من اشتبه بقربهم من الإنجليز، والإنجليز يقفون على مشارف إمبراطوريّة عثمانيّة منهارة، واليهود يجمعون الأخبار للإنجليز، و«يشترون» الأراضي بدعمٍ من حكومة تركيّة مسلمة. وفي هذا المشهد التاريخي الذي يتحالف فيه الألمان مع الأتراك، ويقمع فيه الأتراك العرب، ويتحالف فيه الإنجليز واليهود لحصار الأتراك والألمان والعرب، كان على سارد الأحداث أن يعثر على موقعٍ للتأمّل والنّظر. والموقع الذي اختاره «مفلح الغساني»، ويكتنفه الضّباب، منفتح على أكثر من إتّجاه: إتّجاه أوّل يحدّد صورة الإنجليز، وآخر يعيّن موقف الغرب من بقايا السلطة العثمانيّة، وثالثٌ يرى إلى آفاق الوجود اليهودي في فلسطين. وفي الإتّجاه الأوّل يكون «الغسّاني» مطمئناً، ولو إلى حين، إلى طيبة الإنجليز «الذين لا يقدمون على عمل إلاّ وفيه كل الخير للإنسانية وأبنائها» كما يقول. وهذا راجعٌ إلى إعجاب السّارد بثقافتهم ولغتهم وأدبهم، ذلك أنّ نصّار كان يُحسن الإنجليزيّة ويترجم عنها، بقدر ما كان يحسن الألمانيّة ويترجم عنها أيضاً. ولن يكون الإتّجاه الثاني أقلّ إضطّراباً من الأوّل، ولو إلى حين أيضاً، ويقول: على العرب الوقوف إلى جانب الأتراك إنْ شعروا بأنّ للغرب أطماعاً في الشّرق. وبسبب هاتين المقدمتين سيشعر «مفلح الغساني» بخيبة كبرى، حين يعلم، لاحقاً، بوعد بلفور: «أحسّ مفلح بقشعريرة، وقال في نفسه: أيمكن أن يكون صحيحاً ما قالته الجرائد التركيّة عن أنّ الحكومة الإنجليزيّة وعدت اليهود بأن تعطيهم فلسطين وأن نكون نحن العرب مخطئين في تأويلنا هذه الدعاية، واعتقادنا أنّ الأتراك يقومون بها ليضعفوا ميولَ العرب إلى الإنجليز وثقتهم بهم؟ ص: ٢٩».

تعطي «رواية مفلح الغساني» صورة الزّمن التاريخي بوضوح، وإنْ كان في الوضوح ما يشوب الوضوح، ويقدّم صورة عن المكان وأهله أيضاً. تنتشر في الرواية، إنْ جازت التسمية، أسماء قرى فلسطينيّة، وأسماء عائلات وبشر حقيقيّين وقبائل وزعماء للبدو لهم حياتهم «البسيطة» التي عرفها نصّار قبل زمن المطاردة. كل شيء يحيل على ما كان قائماً، من عواطف التّضامن والوفاء والحياة البسيطة والمحاكمة العاطفيّة أيضاً، كما لو كان نصّار إحتفظ بالأشياء كما هي، مكتفياً بتغيير اسمه، توسّلاً للتفاؤل والأصول العريقة. وعلى الرّغم من ريبورتاج صحفي طريف، قوامه يوميّات صحفي وطني عنيد، فإنّ نصّار التفتَ في أكثر من مكان إلى الشخصيّة التي تنوب عنه في الكلام. فـ«مفلح الغساني» لا يحضر كمرآة غبيّة تعكس ما يقع عليها، بل يحضر إنساناً له «إستقلاله الذاتي»، فيتذكّر ويخاف ويرتعد ويناجي أطيافاً تعبره في ساعات المقتِ والعزلة. ولعلّ إستنهاض «الشخصيّة» من ركام الأحداث هو الذي فرض على نصّار. وبشكل غير متوقّع، الحوار الفصيح والحوار العامّي، كما لو كان نصّار، وهو يحاكي نموذجاً روائيّاً قرأه، يريد أن يحوّل تجربته الذاتية إلى رواية، وأنْ يؤكّد ذاته سارداً متخيّلاً. نقع في تقطيع الفصول المتّكئ على التقرير الصحفي على العناوين التالية: قرار مفلح الأخير، الشيخ يصف مفلح، شعور الغساني، الدلالة على مفلح، أبو فارس يفاجئ مفلح، مفلح يتذكّر، حنكة مفلح.. تعطي صيغة الغائب للكتابة حريّة كافية، تتيح لسارد الأحداث أن يمنح

ذاته الصّفات التي يريدها، دون حرجٍ كبير، مثل الذكاء والدّهاء والوطنيّة والكبرياء. بل أنّ هذه الصيغة تسمح للكاتب بأن يرى النّاس على مسافة، بعد أن أخذ مسافة عن ذاته، تؤمّن للقول موضوعية معيّنة. ولعلّ هذه المسافة هي التي وضعت على قلم الكاتب الجملَ السعيدة والحزينة التالية : « ثم أخذ مفلح يناجي نفسَه قائلاً : أنا ذاهب إلى الصلب؟ فهل أنا أمثل دور السيّد المسيح وهو ذاهب لآخر مرّة إلى القدس؟ ولكن المسيح تمجّد قبل الصلب، فقد إستقبله الشّعب بالهتاف وفرشوا له الطريق بالرّياحين وسعف النّخل. أمّا أنا فماذا عساني ألاقي؟ هل يهتف لي الوطنيّون فأتمجّد قبل الدينونة وأتأكّد من تقدير الشّعب إخلاصي؟.. ص : ١٦٠ ». لم يكن التّماهي بالمسيح ممكناً دون صيغة الغائب، ولم تكن صيغة « الأنا » ملائمة لأحلام الكاتب باستقبال وطني كبير.

تشكّل جملة : « أتأكد من تقدير الشّعب إخلاصي » مدخلاً ملائماً لقراءة « رواية مفلح الغساني ». لا ترد الجملة إتّهاماً، فقد حظي نصّار بإحترامٍ كبير في فلسطين وخارجها، إنّما تحيل إلى أمر آخر يمسّ أحلام المثقفين، أو أوهامهم بشكل أدق. فالرّجل وهو يكتب سيرة كان يؤرّخ لحياته، معتقداً أنّ في حياتِه ما يستحقّ التأريخ، وأنّ في تاريخ حياتِه عِبرة وطنيّة، على الأجيال الفلسطينيّة أن تتداولها وهي تنقّب عن الصّواب. وفي كلام نصّار ما يشي بتفاؤلٍ كبير، وهو الذي أصاب الفلاّح، وهو ما يوحي بثقة بالمستقبل وبذاكرةٍ مستقبليّة عامرة باليقظة والوفاء. والدّليل قائم أوّلاً في نهاية « الرواية » التي تحمل عنواناً دالاً : « الدسيسة الأخيرة »، إذْ البطل انتصر على مصاعبِ الدّهرِ ورجع « يعمل لإعالة أولاده ». وقائم هو في عنوان آخر هو : « الروايتان المحروقتان »، اللّتان تتحدّثان عن فضائل العرب : « وهما من محصول العزلة، وقد راجعت من أجلِهما شكسبير مرّتين، وطالعت أكثر من ماية رواية،.. وأنا أعتقد أنّ في الأمّة أوفياء يرجونهما، والشّعب طيّب يقبل عليهما.. ص : ١٧١ ». يطلب الكاتبُ من وراء روايتيه « منفعة الأمّة » ولتحقيق النّفع راجع شكسبير مرّتين وهو يكتب عن « موقعة ذي قار »، وراجع أكثر من ماية رواية ليكشف عن فضائل العرب. والسؤال الذي يطرح هو : ما الذي يجعل نصّار يتمسّك بروايتين تربويّتين، لا تختلفان في شيء عن روايات تهذيبيّة دارجة أخرى، وهو صاحب الصّوت الأعلى في محاربة الصهيونيّة، وصاحب الجريدة التي يؤرّخ بميلادِها الهويّة الفلسطينيّة؟ ربما هي « أوهام الكتابة » التي تجعل المثقّف يذهب إلى حيث توهم، لا إلى حيث يحبّ الذهاب.

٣- سيرة ذاتيّة فكريّة :

ذلك الرّجل الذي لا يحسن البلاغة، قام بجولتين واسعتين في ربوعِ فلسطين. جمع ما رأى في ثلاثةِ وستّين رسالة بدأها في السابع والعشرين من أيلول عام ١٩٢٢ وأنهاها في نهاية تشرين أوّل ١٩٢٥. ونشرها تحت عنوان : « رسائل صاحب الكرمل على صفحات جريدة الكرمل ». والرسائل ريبورتاج صحفي مباشر، أو « مسيرة إستطلاعيّة تجريبيّة »، كما يقول وليد خليف، حيث نصّار يرى ويسجّل ما يرى، شديد الاستنكار غالباً وقريب من الرضا في أحيانٍ قليلة. وفي الحالين نرى أحوال فلسطين بعين مجرّدة وصادقة، ونقف أمام فكر نقدي وطني، يثق ببصيرتِه ويبحث، لاهثاً، عمّن لم

يفقدوا البصيرة. يكتب نصّار تحت عنوان «الحقيقة الجارحة» : «وجدنا أنّ معظم الحركات الوطنيّة التي حاولنا أن نقوم بها مع الوجهاء والمتزعّ مين في المدن كانت تفشل، وأنّ المتعلّمين إلى الآن لم يتّخذوا لهم موقفاً صريحاً بل تراهم دوماً يتردّدون أو بعبارة أخرى يقدمون رِجلاً ويؤخّ رون أخرى، ولم يقوموا بعد بأعمال تستجلب الأبصار أو تنعش الآمال ليضع الشّعب ثقته بهم. ولذلك قرّرنا لما صمّ منا على القيام بهذه الرحلة أنْ نزور بعض القرى في كل قضاء لنتعرّف بالقرويّين وأحوالِهم الإجتماعيّة والإقتصادية ونقف على نفسيّاتهم ونرشدهم إلى ما نعتقده صالحاً لهم، ونستوحي منهم المادّة الضروريّة لعملِ نا الصحافي، ولنعلم إذا كان يمكن أن نعمل وإيّاهم. ص : ١١٧»[٨].

تضيء السطور السابقة قضايا عديدة : «يعرب نصّار عن يأسه من العمل مع «الوجهاء والمتزعّ مين»، ويستنكر ميوعة المتعلّ مين، ويضع نفسَه خارج الطرفين معاً ، ولأنّه يرتكن إلى جريدتِه وإلى عقل يتحصّن بالصّ واب، رغم إضطراب لا يعيه صاحبه بالضرورة، يذهب نصّاراً إلى فضاء مفتوحٍ ، يقف فيه على أحوال «المهمّ شين»، يستمدّ منهم معرفة عارية لا «تزعّ م» فيها، ويرسل إليهم بنصائح وبأحلام كثيرة، والرّجل فيما يفعل يطبق نهجاً جديداً في الكتابةِ ، إذْ الكلمات المحدّ دة تلتقي بمواضيعها المشخصة، ويسعى إلى حلم مستحيل، يكون فيه المثقف الوطني سياسياً مسؤولاً في مجتمع متخم بالمراجع الفقيرة، شيء لا يبتعد كثيراً عن دروس خليل السكاكيني، التي تستولد المعرفة من الحياة والسياسة من معرفة حياتيّ ة، وتستولد العلاقتين معاً من مسؤوليّة أخلاقيّ ة، وجهها الآخر مسؤوليّة وطنيّة.

تحت عنوان : «رسائل صاحب الكرمل المسيرة الميدانيّ ة في أرجاء فلسطين وشرق الأردن»، جمع وليد خليف مشاهدات نجيب نصّ ار، التي حاول فيها أن يكون صحفيّاً ومثقفاً من نوع جديد. وجديد نصّار أسلوب صحافي ينشد الإمتاع لأنّ ه ينشد التربية الوطنية، ويرى إلى مصائر البشرِ قبل أن يلتفت إلى الكلمات. وبسبب ذلك تأخذ المقالة شكل الحكاية. وتتحوّل أطراف الحكاية إلى شخصيّ ات، كما لو كان الصحفي النّبيه معلماً عطوفاً ، يعطي تلميذه الأمان قبل أن يوجّه إليه الأسئلة، يعطي نجيب، وعلى سبيل المثال، رسالته الأولى – ١٩٢٢ – عنواناً جميلاً وحزيناً : «عكا النائمة». لكنّه لا يلبث أن يوزّ ع العنوان إلى عناوين صغيرة لاحقة : البهجة، الطريق بين عكّ ا وصفد، نجل البهاء، الجمعيّ ة الإقتصادية، لا يحرف تعدّد العناوين نصّار عن غايتِه. فبعد مقدّمة تعظيميّة عن عكا التي استعصت على نابليون، تأتي سيرة زعماء «يتزاحمون على أمور لا شأن لها في الحياة العمليّ ة» تعقبها «البهجة» وهي إسم بستان شهير في لواء عكا، لم يحمه اسمه من الإهمال والتداعي.

وكحال بستان مغترب عن اسمه، تكون الطريق بين عكا وصفد خشنة وتحتاج إلى «التعبيد»، و«نجل البهاء» معزولاً في قصرِه وغريباً عن قضايا الحياة. ولن يبقى لنصّ ار، بعد مسيرة يتوّ جها الإحباط، إلاّ دعوة ورعة إلى تأليف «الجمعية الإقتصادية»، التي بإمكانها، إنْ تحقّ قت، أن تنظّم «الأوقات الثمينة التي تنفق في المقاهي». غير أن نصّ ار، الذي يبحث عن البهجة في بستان تداعى وعن البهاء عند من فقد البهاء، يعطي عكا صفة جديدة في حلقة جديدة، فتأتي «عكا المستيقظة»، التي تظل نائمة رغم الكلمات المستبشرة، يأخذ العنوان الجديد التفاصيل التالية : المعارف في عكا، المدارس التعليمية،

مدرسة الصبيان الثانوية، مدرسة البنات، الشبيبة، الجمعية الاقتصادية، الحاكم الإداري، الشيخ المتقاعد، السجون. ينقشع التفاؤل الذي يحصّن به نصّار نفسه سريعاً ، ذلك أن «الواجب وجوده»، الذي يقول به همساً ، يشي برقعة الخراب الواسعة. يثني الصحفي على المدارس العلمية، مقترحاً أن تتضمن البرنامج المدرسي «مبادئ علم الزراعة الأساسية»، و «التجارب العملية» لأنه ثبت «أن العلوم النظرية لا تأتي بالفائدة التي تأتي بها العلوم العملية». فإن وصل إلى «الشبيبة» أطرى عليها، وأعلن «مع الأسف أنه ينقصها حسن القيادة وأكثرية الشباب لا يعتمدون على أنفسهم كفاية ولم تتربَّ نفوسهم منذ الصغر على الجرأة الأدبية». و«الجمعية الاقتصادية» تذكِّر بنضارة عكا الإقتصادية الغابرة. والشيخ المتقاعد، وهو خطيب مفوّه، لا تروق له حرية الصحافة ولا يميل إليها. وحين يصل الى السجون يكتب السطور التالية: «لم نتفقد حالة السجون، مع أن هذا كان في مقدمة واجباتنا كصحفيين. ولكننا سألنا فعلمنا أن الحكومة الحالية أحدثت فيها تحسيناً يستحق الذكر وسنزورها إن شاء الله في زيارتنا الثانية لعكا. ص: ١٥». بيد أن نصّار، وفي حلقة ثالثة، يجهض التفاؤل الذي وعد به بعنوان جديد هو: عكا المعطّلة. أمراض كثيرة تعطل المدينة التي هزمت نابليون وحولها العثمانيون إلى معتقل لأكابر السياسيين منها: «نوادي الكسل» في المقاهي المنتشرة، أو «ملاجئ البطالة والبلادة»، كما يقول، و«المراسح» التي تهدّ القوى العملية، وتربية التبرير والأعذار التي تجعل كل شيء ممكناً ، الاستكانة إلى الألقاب المتوارثة، وإقبال الناس على تقبيل يد شيخ قليل الفائدة وكثير الضرر. يتطلع نصّار إلى «مسح اجتماعي شامل» يفصل بين المريض والصحيح، كأنه يعاين صحة «المريض الفلسطيني»، الذي تنتظره معركة لا يعرف موقعها.

يقول نصّار: «إن صدق استدلالنا بأن الجرائم والدعاوي يزيد في فلسطين في عهد الإدارة البريطانية فمن الواجب على علماء الحقوق والاجتماع أن يبحثوا أسباب هذه الزيادة. ص: ١٠٨». وواقع الأمر، فإن نصّار يقوم بما لم يقم به علماء الحقوق والإجتماع، وهو يتأمل «نوادي البطالة» وأركان التجهيل، وبما لم يقم به «المتزعم» الدعي والمتعلم الهش، وهو يكتشف أقدار فلسطين من حكايات المضطهدين. وإذا كان نصّار يمثل رومانسية المعرفة، ينتقل من مبادئ الزراعة الفنية إلى نقد المنهاج المدرسي، فإنه، في رومانسيته، عبّر أولاً عن تبشيرية المثقف الوطني، الذي يؤمن بـ«قوة المعرفة» وبقدرة الجريدة على تحويل المعرفة إلى وقائع عملية. وبالتأكيد، فإن تبشيريته المكتنزة لا تستقيم دون بعد تحريضي عريض، هو قوام لها ومرجع في آن. وتكشف العناوين التي كان يقع عليها عن رغبة في استنهاض الكسيح ومن يحسن الوقوف أيضاً ، كأن يكون العنوان: «اقرأوها كلكم، استبدلوا، إلى الأمام أم إلى الوراء. كيف يُتَّقى الخطر. المؤسفات، البيوع الكبيرة والكثيرة: الله أكبر أين غيرة الزعماء التي كانت تظهر في تافه الأمور..» وعلى الرغم من بحثٍ عن التفاؤل بين طيات الغيوم، فـ«المؤسفات» مسيطرة في «المسيرة الميدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن».

يقول نصّار: «تحتاج النهضات إلى إرادة قوية تقاوم العقبات وتدوس العراقيل التي يضعها الرجعيون بأقدام الجرأة الأدبية». لكنه سيكتب بعد قليل، وحين يمر بـ«مرج ابن عامر»: «اجتزنا كل هذا السهل الذي يجب أن يكون ينبوع ثروة فلسطين وإذا هو مع الأسف متشح بوشاح الذل والفقر وليس

عليه علاقة أو مظهر من مظاهر العمران والمدنية » . وبين التحريض المجرد، إذ « الجريء تمجده الأجيال » والأسف، المشخص، فالفقر يلتهم القرى، يكتب نصّار : « والذي استوقف نظرنا أن القطار صار يقف أمام الجالود، إحدى القرى التي اشتراها الصهيونيون من نجيب بك سرسق، قبل أن يعمّر اليهود فيها حجراً ومدّوا إليها الخط الحديدي » . لا يمر القطار أمام قرى فلسطينية قائمة ويتوقف أمام « قرية يهودية » لم تولد بعد، مفصحاً عن زمنين شديديّ الاختلاف . والفرق قائم بين من يذهب إلى غايته ومن ينتظر أن تجيء غايته إليه : « معظم سكان طبريا اليوم من اليهود أما العرب المسلمون والنصارى فهم أقل من نصف السكان . ولذلك نجح الاستعمار اليهودي في شراء الأراضي من عهد قديم قبل أن يكون الناس يعرفون شيئاً عن الصهيونية ومقاصدها . ص : ٣٢ » . عرف « الناس » الصهيونية حين أصبحت معرفتها متأخرة، أو عرفوها بوعي متأخر لا علاقة له بالمعرفة . ولهذا فات القطار القرى الفلسطينية .

ارتكن نصّار إلى « عتلة المعرفة » حالماً بتخليق كون جديد . وسقط حلمه قبل أن يرتفع، لأن المكان الذي يوافق « عتلته » لا وجود له . وما لحظة الحلم إلا نثار من وقائع سعيدة، كأن « تعتني مدارس المستر سمبل بتعليم اللغة العربية وتدريس سيرة أبطال العرب »، أو أن ترد « الحديقة الغناء » جانب طولكرم على قول تشرشل : « لا أتوقع أن يعمر العرب بلادهم أو أن يمدوا لها الكهرباء في ألف سنة »، أو أن كسب بعض الناس عيشهم بشرف لأنهم تمسكوا بـ« مزايا العرب » . يبني نصّار، مقابل نثار التفاؤل، خطاباً وطنياً ـ نقدياً قوامه جملة من الثنائيات اللامتكافئة : « العلم / الجهل، الغنى / الفقر، الوطنية / الخيانة، فلسطين / المشروع الصهيوني . وبداهة، فإن نصّار، وهو يكتب ريبورتاجاً صحفياً جميل التقطيع، لا يكتب بلغة مفهومية « مشبعة » بالنظرية، بل يرمي بملاحظات نقدية نضرة ومتراصفة، يستطيع الدارس بناءها نظرياً . ويغدو الأمر ميسوراً ، بسبب قصدية كتابية سافرة، تحاول قراءة أحوال فلسطين على ضوء المشروع الذي ينذر بإغراقها .

مهما تكن الثنائيات التي ارتكن إليها نصّار، يظل الموقف من الحفاظ على الوطن معياراً رئيساً : يكتب تحت عنوان « تطويب الأراضي » : « غير أن العيب قد ظهر في الأهالي بسبب جهل قيمة الأرض وبسبب ضعف أخلاقهم الوطنية وبسبب الضائقة المالية . ص : ٢٨ » . ويكتب تحت عنوان الحالة الاقتصادية : « يستهوي السماسرة البسطاء بتضليلهم وبقولهم لهم الأفضل لكم أن تبيعوا فالبلاد راحت والثمن الذي تقبضونه اليوم لا تحصلون عليه فيما بعد . . ص : ١٦٣ » . يتحدث نصّار عن « الفقر الشامل »، لا عن الفقر الإقتصادي فقط، ذلك أن الفلاح الذي يبيع أرضه، وهي حالات قليلة على أية حال، يفتقد معنى الحياة قبل أن يفتقد الرغيف . ومع أن نصّار يسبغ على الأرض جمالية خالصة، فهي « فردوس المجتهدين »، يؤكد، بلا انقطاع، ضرورة « علم الزراعة » و « المدرسة الزراعية » و « مبادئ التعليم الزراعي »، كما لو كان في العلم، وهو منظور إلى العالم، ما يغوي الأرض على الكشف عن أسرارها . وبهذا المعنى، لن يكون نصّار، وهو المفتون بكلمة العلم والمعرفة والمدرسة، بعيداً عن القول بـ« علم المبادئ الوطنية »، الذي يعلم الفلاح قيمة الأرض ويعضد الأخلاق الوطنية ويسهم في فك الأزمة الاقتصادية .

لن يقطع «علم المبادئ الوطنية» مسافة طويلة قبل أن يتداعى، فالعلم فقر آخر إن لم تباطنه أخلاقية واضحة. فما عصم العلم خائناً عن خيانة. يكتب نصّار: «راج سوق بيع الأراضي في لواء نابلس وقضاء طولكرم رواجاً يشبه رواجه في الجهة الشمالية أو أكثر، وإن كانت البيوع في المنطقة الشمالية كبيرة فالباعة معظمهم من أهالي بيروت وزعماء لبنان الكبار الذين يشار إليهم بالبنان. أما في هذه الجهة فمعظمهم من الوجهاء والعلماء وأبناء العائلات والزعماء وأعضاء المؤتمرات والجمعيات إلخ إلخ... ص: ١١٥». يبيع الفلاح أرضه عن جهل وفقر، و يبيع «الأعيان» الأرض عن جشع ومعرفة، بل أن الفلاح، وكما تشهد الدراسات، لا «تنهب» منه أرضه، إلا بسبب «متزعم» يقف على ظهره. ولهذا، فإن نصّار، المفتون بتعاليم المسيح والنبي محمد، يربط ربطاً وثيقاً بين «المتزعمين» واستحالة المشروع الوطني، لأن دور المتزعم، وكما يقول، بيع المصلحة العامة من أجل مصلحة خاصة. تجعل العلاقة بين المتزعم وتحقيق المصلحة الخاصة، أو بين التزعم وتهديم المصلحة العامة، من تجار الوطنية تجاراً بالوطن والمواطنين. تجاراً لهم مهابة وبهاء وهالة محترمة. يستمدون المهابة من «الوجاهة» والبهاء الكاذب من «العلم» والهالة الخادعة من «المؤتمرات» و «الجمعيات» و«قصور» عائلاتهم المعروفة، بل إنهم يستمدون كل ألقابهم الخاوية من إلغاء إنسانية الفلاح ومصادرة إرادته. ولعل هذه الهالة هي التي تدفع نصّاراً، دون أن يدري ربما، إلى الإحالة إلى قانون التقليد، حيث الضعيف يحاكي القوي. حين يتحدث عن «فساد الفلاحين الذي يتسرب إليهم من المدن». وما يخلص إليه نصّار، وهو يندّد بـ«المتزعمين» في لبنان وفلسطين وبقاع أخرى، واضح، تبرع الزمن بالبرهنة عليه بعد حين: «هؤلاء الزعماء الذين يساعدون متعمدين على تشكيل مملكة يهودية في قلب البلاد العربية بين سوريا ومصر والجزيرة.. ص: ١٤١».

«المسيرة الميدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن». هذا هو العنوان الثانوي الذي يضيء العنوان الأساسي: رسائل صاحب الكرمل. يردّ العنوان الثانوي إلى المكان، وإلى رحلة ترصد ملامح المكان وتسجّله. بيد أن نصّار، يضيف إلى الرحلة الأولى رحلة أخرى، تقرأ المكان في مرآة المتزعمين، وتشتق صورة المتزعم من المدرسة البائسة والمزرعة المهجورة والفلاح المخذول الذي يدفع لـ«جلاده الانجليزي» ثمن العصا التي تكسّرت فوق ظهره. يكشف نصّار، وفي استقصاء ميداني، عن معنى «المتزعم» في مجتمع عضوي موزّع على العائلة والطائفة والمشيخة والعشيرة والبلدة. ينطوي التزعم المفترض على ظاهرتين: يعمل المتزعم على الاحتفاظ بالقسط البشري الذي يؤمّن له الزعامة مجتهداً، لزوماً، في إقصاء قسطه عن الأقساط الأخرى، أي مؤمناً أن التفرقة هي عماد وجوده. ولكي يبرهن المتزعم على صلاحه، الذي لا صلاح فيه، يكون عليه أن يبرهن عن تمايزه الإجتماعي، نفوذاً وهيبة وثراء. وهكذا تكون التفرقة قوام الظاهرة الأولى، والفساد والإفساد عماد الظاهرة الثانية. وعن هاتين الظاهرتين معاً، يصدر دور «المتزعم» في إفساد القضاء والتلاعب في الضرائب على الزراعة وتزوير معنى الكفاءة ونقل الفساد من «المدينة؟»، كما يقول نصار، إلى القرية. وحاكم الأمور دائماً هو «النفوذ الشخصي»، الذي يضع مصلحة الجزء المبدّد فوق مصلحة الكل الذي لا وجود له، ويضع مصلحة المتزعم فوق ركام الجزء والكل معاً. وفي منطق كهذا تكون «الأحزاب الوطنية» تنكيلاً

بالوطن، والمتزعمون سماسرة و« الصحافة الوطنية » كتابات صفراء تروّج للسماسرة المتزعمين.

وقد يبدو نصّار عالي الصوت إزاء الخراب الداخلي وخفيضه إزاء الاستعمار البريطاني، وهو ما ينقضه، وبنبرة مقتضبة، في فقرة عنوانها : « بلفورات فلسطينية »، متحدثاً عن : « العاملين على إتمام تصريح بلفور بإنشاء الوطن القومي ومن هؤلاء المرابين الذين يستفيدون من شدة الضائقة الإقتصادية .. ص : ١٤٨ »، حيث فحش الفائدة يجبر الفلاح على بيع أرضه، وبداهة، فإن معايير الربا والبيع والشراء، في مجتمع قائم على « النفوذ الشخصي »، يقرّرها المتزعمون، بقدر ما تقرر الأرباح والطموحات الفاسدة معايير قيادات البوار. وفي الحالات جميعها، يعيد نصّار، وعلى مستوى آخر، الصورة السوداء التي رسمها محمد عزة دروزة مؤرخاً. فحديث الإصلاح يحتاج إلى إصلاح. و« الحصص البشرية » هاجعة، وحرّاس « الحصص » مرتاحون في عباءاتهم، حين يمر نصّار على أكثر من بلدة يكتب « الروح الوطنية نائمة »، فإن التقى بـ « روح طيبة » نسبها إلى « شمم العرب »، أو أخذ عليها كثرة الانفعال : « الحركة الوطنية في نابلس قائمة كلها على العواطف كما هو الحال عند عموم الشرقيين .. ص : ٧٢ ».

في أكثر من مكان وبوعي واضح مستثار، يرى نصّار إلى الفرق بين اجتهاد اليهود وإهمال العرب، كأن يكتب : « كانت مخازن الصهيونيين في حيفا في أول سني الاحتلال قليلة جداً، وما كنت ترى سوى لوحات قليلة باللغة العبرية، أما اليوم فإذا مررت بالسوق ترى اللوحات باللغة العبرية أكثر منها باللغة العربية »، إلى أن ينتهي إلى نبوءة تحققت بعد ثلاثة وعشرين عاماً : « إذا بقي الحال مستمراً نعتقد أنه لا تمضي سنون قليلة حتى يتطبق تصريح بلفور بحذافيره وتصبح فلسطين في قبضة الصهيونيين ولا يبقى لنا إلا التراشق بالكلام رأسمالاً لأن الصهيونيين لا ينازعوننا في شيء من هذا .. ص : ٩١ ». تخبر السطور الأخيرة عن خفوت صوت نصّار في النصف الثاني من العشرينات، وعن كآبته في الثلاثينات، وعن موته الجسدي والرمزي في عام النكبة.

ذلك المولع بكلمات ليست من زمن مجتمعه في شيء، مثل « الرجل العمراني »، كان، وقد ظللته أشجار المعرفة الخضراء والحزينة معاً، يقترح بديلاً عن التراشق بالكلام ويهجس بـ : استراتيجية المقاومة الوطنية، في فضاء أعزل ترتد عنه صحراء الانفعال إلا في لحظات مارقة. فهو يستنهض في الفلسطينيين جمال المسيح الفلسطيني وعدالة الرسول محمد، ويقص عليهم أمجاداً عربية قديمة حقيقية ومتخيلة، ويحرض فيهم، وقد ألمَّ بشيء من ثقافة الغرب، عقلاً يتأبى عليه النهوض، مؤكداً أهمية العلوم والعلوم التطبيقية والمدارس الحديثة وتحرر المرأة وشعاراً لا تنقصه الطرافة : « النهضة الاقتصادية أساس النهضات جميعاً ». وهذا الشعار فرض عليه حديثاً متواتراً عن تنظيم التجارة والارتقاء بالصناعة وتقديس الزراعة والأرض، متأثراً ببعض كلمات تولستوي عن الأرض والفلاح. وكانت هامشيته، في حديث الترقي والتمدن على الأقل، لا تنفصل عن لغة غير أليفة لمجتمع تقليدي، تحتضن جملة من التعابير تخاطب العقل كثيراً والعاطفة قليلاً. من هذه التعابير، التي ينأى عنها المتزعِّم ولا يعرفها ربما : الأخلاق الوطنية، الهيئة الاجتماعية، كفاءة الوطني، الكتلة الوطنية الفاعلة، الرجل العمراني، العقول النيرة، فن الإدارة، النهضة الزراعية، الرقي والتمدن، المبادئ الأخلاقية والاجتماعية.. تحيل

هذه التعابير على حياة حرة، لها لغتها الخاصة بها، على مبعدة عن لغة الخطب والرياح وعلى مسافة من متعلم يقوده وعيه الريفي إلى تزلّف الوجهاء والانبهار بالوظيفة الحكومية. وليس غريباً ، والحالة هذه، ألاّ نعثر على صوت وطني بارز لدى المتعلمين، الذين كان يرسلهم الانتداب، أو عائلاتهم الميسورة، إلى الجامعات البريطانية، أو إلى مدارس عالية تحت الانتداب البريطاني أو السيطرة العثمانية، ذلك أن هؤلاء المتعلمين كانوا يتلقون « تعليماً ادارياً » هاجسه الانطلاق من وظائف الدولة والعودة إليها. ولذلك، لن يلتقي نصّار، إلا قليلاً ، بـ« متعلمين » يستعملون لغته، ولن يلتقي، إلا قليل الأقل، بسياسيين مشغولين بـ« النهضة » و « التقدم الإجتماعي ».

كلمة « الوطنية » هي الأكثر رواجاً بين كلمات نصّار، تحتضن الأخلاق والزراعة وما بينهما، وتحيل على أمر مرغوب هو : المواطن الذي يحتفي بالوطن، أو : المواطنون، الذين يرون إلى فلسطين، قبل أن ينصتوا إلى عائلاتهم وطوائفهم ومشايخهم. لم يعثر نصّار على كلمة « الوطنية » في كتاب، إنما جاءته من كفاح وطني، ومن ممارسة مشخصة عاشت دلالات : الاستبداد العثماني والنفاق الانجليزي والتربص الصهيوني والعواطف العربية. ومن معرفة نيرة قوامها الممارسة الأخلاقية انبثق ذلك الحدس العارف، الذي بشّر وأنذر ثم انسحب ينتظر الفجيعة. نقرأ في رسالة له عن حيفا عام ١٩٢٥ ما يلي : « والحقيقة التي لا مراء فيها أنه كلما ازداد الضرر وسرى الخطر في جسم هذه الأمة ازدادت الهمم فتوراً والعقول ذهولاً والنفوس خمولاً وازداد الأطباء إهمالاً بل ازدادوا جدالاً وخصاماً ونسوا أن مريضهم يحتضر بين أيديهم وأنهم أوشكوا أن يصيروا حفاري قبور وأنهم إذا بقي هذا حالهم قد لا يجدون حفاراً يحفر لهم قبورهم ». وضوح جميل، وجماله مرارة باهظة، بعيد عن خطر الثلاثينات القادمة، التي تعد بتأديب الجبال ونصرة الحق المبين. ويكتب نصّار عن حيفا أيضاً : « ست سنين وعوامل التنازع تفعل فعلها فينا فتذهب بأموالنا وتزيد في تفريق كلمتنا وتنابذنا وإضعاف جميع قوانا حتى أصبحت هيئتنا الإجتماعية كمن أصبح في الدرجة الثالثة من السل يهدده الموت وهو يحسب أنه أطول الناس عمراً ».

في رحلته التي يختلط فيها الحدس بالإحصاء، قدم نصّار خطاباً اجتماعياً نقدياً ، وخطاباً وطنياً تحريضياً ، وصورة عن مثقف وطني رومانسي، ظن أن جريدته تعيد تخليق العوالم. وبما أن أعلى الناس ارتفاعاً أوقعهم سقوطاً ، كان على نصّار أن يبدأ، لاحقاً ، رحلة المرارة والتشكي، فما كتبه المثقف محته الريح ولم يره أحد، شيء قريب من عاشق قصب السكر الذي قوّضه السكر لاحقاً ، مع فرق حزين، هو أن نصّار لم يكن سجين الشره، بل طليقاً في عشق البلاد.

٤ ـ سيرة الخطأ والصواب الذي لا سيرة له :

في السابع من تموز ـ ١٩١٤ ـ نشرت الكرمل، وهي تعلّق على « نداء عام إلى الفلسطينيين » جاء من إحدى المنظمات الوطنية، السطور التالية : « عليكم أن تجندوا الرأي العام حتى تتمكنوا من تحقيق هذه الأهداف، وليس لكم أن تلوموا الصهيونيين، بقدر ما ينبغي أن تلوموا زعماء بلدكم وموظفي حكومتكم الذين يبيعونهم الأرض ويعملون كسماسرة لهم. أوقفوا هذه المبيعات توقفوا الحركة

الصهيونية». الجملة الأخيرة: «أوقفوا هذه المبيعات توقفوا الحركة الصهيونية»، تعلن عن موقف نصّار الوطني ومحدودية منظوره الوطني أيضاً. وطني وهو يقاتل الصهيونية وبيوع الأرض، ومحدود في منظوره الوطني وهو يرى العامل الداخلي ولا يرى إلى العامل الخارجي. ينصّب هذا المنظور في الأخلاق مبتدأ وخبراً، دون أن يدري أن أخلاقية الشعوب المستضعفة تسعفها في المقاومة ولا تمنع عنها الهزيمة. ولهذا اعتقد أن استعادة العرب، في الحاضر، لفضائل العرب، في الماضي، ترشد القافلة العربية الجديدة إلى طريق قويم.

انعكس تصوّر نصّار الأخلاقي في قضايا متعددة. كان يندهش من موقف الأتراك الجائر من العرب، والطرفان ينتميان إلى شرق واحد، ويتعجب من ظلم الأتراك للعرب، والطرفان يعتنقان ديناً واحداً. في تصور، لا تنقصه السذاجة، يصبح الشرق هو «الجوار»، والدين هو «القربى»، وعلى الأخلاقي أن يحترم الجوار والقربى، ماحياً، وببراءة كبيرة، الدولة وحساباتها وموقف الدولة العثمانية البراجماتي من «القربى» و «الجوار». وبسبب وعي بريء، لا ينشغل بالصراعات المادية والمصالح الاستعمارية، يكون «مفلح الغساني» مستعداً للدفاع عن تركيا في «حالة ظهور المطامع الأوروبية»، التي هي، أي المطامع، «سر غامض» لا يمكن التنبؤ به. وهذا اللامتوقع أوقع نصّاراً في الارتباك والذهول حين علم، فجأة وعلى غير توقع، بوعد بلفور، ذلك أن الانجليز لا يؤذون أحداً، بل أن ثقافتهم، وشكسبير وجهها الأكبر، لا تسمح لهم أن يصيبوا الفلسطينيين بضرر، يشتق نصّار العلاقات العربية ـ التركية من «الدين» و «الجوار» ويخترع الموقف الانجليزي من فلسطين من الثقافة، على اعتبار أن ثقافة الانجليز وجه آخر للفضيلة.

وفي هذه الحدود، يغدو «الانتماء القومي العربي» لغزاً، يشير إلى ماضٍ أنتج قيماً فاضلة، لا إلى مجموع بشري متمايز يربط هويته المختلفة بمستقبل مختلف، يحقق التمايز وتعيين الهوية سياسياً. ولذا، فإن نصّار لن يميل إلى الأتراك لسببين: اضطهادهم العرب وتحالفهم مع الألمان، بدلاً من التحالف مع الانجليز، الذين لهم أسطول كبير يرافق الشواطئ التركية الممتدة من الأستانة إلى مرسين. وهذا يعني أن رفع الجور وتصحيح التحالف، وهما يردان إلى الأخلاق والحكمة، يجعل من القضية القومية نافلة، ويضع العرب والأتراك في إناء متجانس، بمعنى آخر: إن العروبة أخلاق قويمة لا تستدعي، لزوماً، سلطة سياسية يمارسها العرب.

يظل تناقض نصّار قائماً وهو يعاين المشروع الصهيوني: يعرف غاياته بوضوح مدهش، ويبصر آفاقه ببصيرة نافذة، لكن منظوره يكبو مرتين: مرة أولى، وهو يعزل تكوّن المشروع عن العوامل الأوروبية الأساسية التي أسعفته على الوقوف، ومرة ثانية حين يرى في الصلاح الداخلي، أي تهذيب النفوس، دربا لدحر هذا المشروع، فبما أن المشروع وليد يهودي محض لأطماع يهودية محضة، فمن العبث «بعثرة الجهود» والاصطدام بما هو غير يهودي. ولعل هذا التصور الخاطئ، بعد أن استقر الانجليز في فلسطين سيدفع صوت نصّار الهادر إلى الخفوت، حتى اقترب من التهميش والصمت.

يكشف نصّار عن بصيرته وهو يكتب في الكرمل في ١٩ أيلول ١٩١٣ السطور التالية: «البيروتيون يقتصرون على مطالبة الحكومة بالإصلاح.. مالنا وللبيروتيين! نحن الفلسطينيين على شفا جرف،

فالخطر السياسي والإجتماعي والإقتصادي يهددنا من كل صوب، والأمة تنازعنا البقاء في وطننا برهنت على كونها أمة حية قوية تعمل لنفسها وتعتمد على نفسها.. عقلاء الشعوب أدركوا أن دعائم الحياة هي صيانة المصلحة العمومية والتضامن على إحكام ربط الجامعة القومية، فلماذا لا يقوم أبناء الأمراء والشرفاء والكبراء، والمتعلمون والغيورون في فلسطين لعقد مؤتمر يفكر بتنظيم جامعة عربية فلسطينية تهتم بإحياء التجارة وإنهاض الزراعة والتعليم؟».

يهجس نصّار، وهو يدعو إلى «جامعة فلسطينية»، بالمؤتمر اليهودي الذي عقد قبل خمسة عشر عاماً، مؤمناً بأن «الأمة اليهودية» تعتمد على نفسها، وأن على «الفلسطينيين» أن يعتمدوا على أنفسهم أيضاً. لا يمنع ارتباك المقايسة عن نصّار فضيلتين: تعامله اليقظ والذي لا خفة فيه مع المشروع الصهيوني، مدركاً أخطاره ومؤمناً بإمكانية انتقاله من «القوة» إلى «الفعل». ودعوته إلى إصلاح فلسطيني، شامل، يمدّ الفلسطينيين بأسباب مقاومة وطنية. وسواء كان يترجم إلى العربية سطوراً «إصلاحية» قرأها في كتاب أجنبي، أم كان يردّ على واقع مقوّض يجب تحويله، فإنه كان يهجس بـ«استراتيجية مقاومة»، بعيداً عن الخطابات الملتهبة التي تتبخر لحظة غياب المصفقين.

إن هذا الوضوح في التعامل مع صهيونية مكتفية بذاتها، كان يرتبك، إضافة إلى ما يخالطه من ارتباك، مرة أخرى، حين يخرج نصّار من سؤال ضيق إلى سؤال أكثر اتساعاً. كأن يكتب في الكرمل في ٢٢ آب ١٩١١، ما يلي: «بدأنا نشعر بتأثير الصهيونيين على الهيئة الحاكمة مذ علت نغمة الترك والعرب.. إن أحرار الترك سليمو النوايا وحديثو العهد في السياسة. ونعتقد أن الصهيونيون (هكذا وردت في النص) وجدوا فيهم موضوعاً قابلاً للخديعة.. أما نحن العرب فلم نبرهن على كوننا أوفر حكمة من إخواننا الأتراك تجاه السياسة التي تهدد سلامة المملكة. فبدلاً من أن تحملنا هذه الأحوال على زيادة التقرب منهم لنبيّن لهم ضرورة اتحادنا، قابلنا مخاوفهم بالاستياء، فازداد الاعتقاد الذي غرسه فيهم الصهيونيون على ما نظن، بعدم إخلاصنا لهم رسوخاً في أذهانهم..».

يحتضن القول السابق الكلمات التالية: النية السليمة، الخديعة، التقرّب، الإخلاص.. تظهر هذه الكلمات أكثر وضوحاً بالركون إلى نقائضها: النية الحسنة، والأعمال بالنيات، الوفاء، وهو علاقة فرد بفرد، التنافر، وهو غياب التسامح، الغدر، وهو علاقة فرد بفرد مرة أخرى. توافق الكلمات، وكثير غيرها في كتابات نصّار، خطاباً أخلاقياً، يرى في العلاقات الإجتماعية والسياسية علاقات ما بين-فردية. وبما أن الأخلاق، بداهة، تبدأ بالفرد، فإن إصلاح الأفراد العرب والأفراد الترك مدخل إلى حياة سعيدة توحدّهما. يبدأ القول سياسياً وينتهي إلى فضاء لا مكان للسياسة فيه، إذ القومية العربية أخلاق والقومية الطورانية نافلة بعد إصلاح الأخلاق، وإذ المقاومة الوطنية تردّ إلى النوايا والأفراد والنيات الحسنة. ينبني القول السياسي عند نصّار على عمومية أخلاقية، تستأنف «العواطف الشرقية الملتهبة»، التي ينقدها في أكثر من مكان. وهذه العمومية الأخلاقية تغوي نصّاراً بتعامل إيجابي مرتاح مع كلمة «الحكومة» سواء كانت عثمانية أم بريطانية، طالباً منها «إصلاح المجتمع» و «دعم القضية الوطنية». يتوزّع معنى «الحكومة» على الأفراد الذين يمثلونها، وبما أن في بعض الأفراد الذين التقى بهم فضائل لا تنكر، فإن الحكومة المزودة ببعض الفضائل قادرة على بعض «الدعم»

وبعض «الاصلاح».

ما الذي يجعل خطاب نصّار، المثقف الحديث، مسكوناً بتناقضات متجددة؟ ما الذي يجعله يبعثر البداية الصحيحة حين يبتعد عن البداية؟ يقول نصّار، وهو يُحلِّل الايديولوجيا الصهيونية : «والغالب على اعتقاد الموسويين أنه يستحيل عليهم إعادة حكومتهم في سوى أرض الموعد.. ومع أن هذا الاعتقاد يستخدم لتسخير عقول عامتهم، فإنه يفيد أيضاً في تشويق الخاصة منهم؟»[٩]. يمس نصّار مباشرة البعد البراجماتي للإيديولوجيا التضليلية، دون أن يقارب المراجع البشرية التي تنتج الإيديولوجيا وتروّج لها. ويكتب أيضاً : «إننا لم نعلم كيف يدعي الكاتب وكثيرون من الإسرائيليين أن فلسطين هي ملك أجدادهم، فإن كانوا يدعون ذلك لأن أجدادهم امتلكوها بحق الفتوح فقد امتلكتها أمم من بعدهم بالحق نفسه. وإن كانوا يبنون دعواهم على قول التوراة بكون الحق عز وجل أعطاها ملكاً لإبراهيم، فالحق نفسه سمح بأخذها من أيديهم، فضلاً عن كون أمم كثيرة تفرعت من نسل إبراهيم غير الطائفة اليهودية»[١٠]. يردّ «المثقف الحديث» على الحجة التاريخية القديمة بحجة تاريخية قديمة، وعلى القول الديني بقول ديني آخر. ومع أن الرد، في شكليه، لامع وحاضر البديهة، فإن نصّار عاجز عن ربط المشروع الصهيوني بالمشروع الإستعماري الأوروبي، وعن ربط المشروع الأول بآثار الثورة البرجوازية الأوروبية، مكتفياً بشعب ملتف على ذاته، هو الشعب اليهودي، الذي يشتق من كتبه الدينية مشاريع مكتفية بذاتها أيضاً. والسؤال هو : لماذا يأخذ هذا المثقف الذي يقرأ الإنجليزية والألمانية، ويمتهن الصحافة بمقاربة محدودة في موضوع بالغ الخطر كما أكد أكثر من مرة؟

ينفتح الجواب، ربما، على اتجاهين : يقبع في الاتجاه الأول مجتمع عضوي تقليدي، لا يعرف الأحزاب السياسية والحوار المجتمعي وربط الخاص بالعام والمحلي بالعالمي. وهذا يفرض على المثقف العزلة والأخذ بمقاييسات ذهنية. فنصّار يدافع عن فلسطين وهو يدافع عن أرض المسيح، ويدافع عن «مسيحية فلسطين»، وهو يقاتل من أجل القيم العربية القديمة، ويكافح من أجل هذا كله تمسكاً بمبدأ الفضيلة التي تواجه الرذيلة، والمسيح يردّ إلى زمن ذهبي قضى وفضائل العرب حلم متوارث والفضيلة رنين جميل ليس له عنوان، أي أن نصّار، وعلى مستوى المنظور، يحج إلى أزمنة مختلطة ويظل ضائعاً.

ومهنه الحديثة، مثل المحاماة والصحافة والتعليم، حديثة بالمعنى التقني، الذي لا يوافق، بالضرورة، معنى تاريخياً يفصل بين الدين والقومية وبين الأرض والوطن. وتعطي «رواية مفلح الغساني»، ربما، صورة عن التناقض بين المنظور والتقنية. فالرواية، تعريفاً، تحيل على جنس أدبي حديث يختلط فيه المتخيل بالمستقبل، و «رواية» نصّار مشدودة إلى معيش «حرفي» وقيم منقضية.

استعمل نصّار تقنية أدبية حديثة لخدمة أغراض تقليدية، مبهورة بحسن الضيافة وهدوء البراري، أي مبهورة بمجتمع عليه أن يتغير دون أن يفقد «عادات أجداده». وإذا كان بؤس الواقع الفلسطيني قد فرض على نصّار تمرداً مقيداً، فإن الاتجاه الآخر، أي الثقافة الأوروبية قد حررت نصّار وقيدته أيضاً. تحرّر روهو يقارن بين أكثر من لغة، وبين نصين سياسيين، وبين العلوم النظرية والعلوم التطبيقية، وظل مقيداً وهو يُقبل على الثقافة الأوروبية ويغمض عينيه عن الاستعمار الأوروبي، لأن «الثقافة الخيرة» لا تسيء إلى أحد، بمعنى أكثر تحديداً : إن كانت أوروبا الإستعمارية قد ضحت بالشعب الفلسطيني

فداء للمشروع اليهودي، فعلى المثقف الحديث أن يضحي بكرهه للاستعمار فداء للثقافة الأوروبية، فأوروبا جاءت بالاستعمار وبالحداثة الفكرية، والعلاقة الثانية تخفف أوزار العلاقة الأولى، أو تزيحها عن مجال البصر. وهذا الموقف، المسكون بالتناقض والتمزق، دفع نصّار، ربما، إلى التعاطي الصارخ مع «الأمراض الإجتماعية الفلسطينية»، كما لو كان المرض الفلسطيني يصدر عن روح فلسطينية مريضة لا أكثر، وإلى التعامل الرفيق مع السيطرة البريطانية على فلسطين.

ومهما تكن التناقضات التي حكمت موقف نصّار، وهو مشروط بزمنه وبمجتمعه، فإن هذا الصحفي الوطني الثائر أنتج خطاباً وطنياً، يتعامل مع المشخص ويرى بلا خطأ إلى آفاق المشروع الصهيوني، وخطاباً تنويرياً، غير مسبوق، يصل بين إمكانية المقاومة الوطنية وإصلاح المجتمع الفلسطيني. كان نصّار يكتب نثراً في مجتمع يحتفي بالبلاغة، ويحض على الفعل المنظم في مجتمع كثير الشعارات والعواطف. وكان، قبل كل شيء، قد اختبر «المتزعمين» وألقى بهم وراء ظهره، وعاين «المتعلمين» واكتشف ميوعتهم الباهظة.

ولد نجيب نصّار عام ١٨٦٥ وتوفي عام ١٩٤٨، لم يلتق نصّار بالأجيال التي تمجّد الجريء، كما اعتقد، لكنه وجد من يحفظ بعض صفحاته من الضياع، ويعرف تاريخ موته وولادته، ولو بخطأ قليل. كان الروائي الألماني هنريش بول يقول: «يعمل المثقف من أجل حلم لن يراه». وفي حدود هذا القول يكون الزمن قد أنصف نصّاراً، أو اقترب من إنصافه.

إشارات:

(١) نجيب نصّار: رواية مفلح الغساني، تقديم وإعداد حنا أبو حنا، دار الصوت، الناصرة، ١٩٨١، ص: ٢٤. استفاد كاتب هذه الدراسة (ف. د) من المقدمة الجادة التي كتبها حنا أبو حنا، فله جزيل الشكر.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢١.

(٣) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص: ٦٤.

(٤) نجيب نصّار: المرجع السابق، ص: ١٥.

(٥) كتاب الكيالي، ص: ٦٤.

(٦) ماهر الشريف: البحث عن هوية، الطبعة الأولى ١٩٩٥، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، قبرص، ص: ١١.

(٧) رسائل صاحب الكرمل، بقلم شيخ الصحافة الفلسطينية نجيب نصّار (المسيرة الميدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن)، تقديم وإعداد وليد خليف، مطبعة الحكيم، الناصرة، (١٩٩٢؟).

(٨) المصدر نفسه.

(٩) ماهر الشريف، ص: ٢١.

(١٠) المرجع السابق، ص: ٢٣.